

مأساة الراهن

رواية «المايسترو» لسعد القرش فجوة الواقع بين الوعي والضمير



واقع مأزوم

القديم، واستقرأ الصور والوقائع والمعاني، فضلاً عن الإشارة إلى ارتباط الحاضر الإنساني البسيط بالماضي المعاش، لكن تبقى بعض القيم والمعتقدات حاکمة في مثل هذه الأمور، كما أن النهاية التي جاءت على نحو لا يتناسب مع زخم الأحداث التي تم تقديمها، فبينما بدأت الحكاية وتفرقت لنحو من التأمل في القيم والمعتقدات وكيفية معاملة المرأة المعاملة اللائقة والبحث عن الحقائق والوقوف في التاريخ.

مع ثراء ووفرة الواقع الاقتصادي الذي يعيشه السيد الخليجي نجد أن الناحية النفسية مأزومة، فهناك غياب لوضوح الهدف، وعدم القدرة على تحقيق السعادة، خاصة في ظل الكم الكبير من التناقضات ما بين المسموح والممنوع، وما بين الرغبة والكتب

إلا أن النهاية جاءت بتحول المجموعة الهاربة من سطوة المدينة عليهم عبر قاربهم البدائي، والذين رفعوا مجدافه وتركوا التيار يحركهم فأوقعهم في طريق يخذ ضخم يقام فيه حفل مجون جماعي وانتهاك للأعراض، إلا أنهم في مواجهة ذلك لا يبذلون أي ممانعة في سرقة مال صاحب هذا اليعت، وتنتهي الرواية بطريقة فانتازية بعيدة عن زخم الواقع المر الذي تناوله القرش، دون أن تغفل احتمالية الإشارة لثورة في هذه النهاية المتعلقة بنقر مجموعة كبيرة من الديوك أوتاداً شدت إلى الإسفلت.

فالنهيانية هنا رمزية لحتمية تبديل الأوضاع أو انهيار كل شيء فوق رؤوس أولئك المطمئنين لما هم فيه ولا يرغبون في تحريك الأمور نحو الصواب والطبيعية وما تتحرك وفقه سنة الكون وطبيعة البشر، بيد أن النهاية جاءت سريعة ومقتضية وصادمة على نحو حاد أوقف استطراد الحكى الممتع والمتشعب الدال عبر الشخصيات ومفترقاتها ومفارقاتها في فضاء نصي امتد لقرابة اللائحة صفحة، لينتهي بحريته الحكيم مرة واحدة.

بالاستمتاع بمعاشرة الرجال له، يعامل هذه الزوجة أسوأ معاملة إنسانية ممكنة، وهي تخونه دون قدرة منها على مقاومة هذه الخيانة، وهكذا في تتال يوضح أن هناك - طوال الوقت - عقوبة ممارسة نتيجة انقسام القيم والتعالي والغرسة وعدم تشكيل المجتمع على أسس سليمة، وغيره مما يمكن أن يقال عن الواقع المأزوم الذي تعيشه المجتمعات العربية عامة، ثم الخليجية خاصة.

لكن الرواية لا تتقف عند حدود الدولة الخليجية، وإن كانت هي مناط التركيز على مفارقاتها، فمع استحضار شخصية «المايسترو» الذي لا نعرف ما الذي جمعه من صداقة مع هؤلاء، ولا المصادفة التي قرروا على إثرها في هذا اليوم بالتحديد للخروج لممارسة شرب الخمر في ظلام الخليج، متوخين الحذر من أن يتم كشفهم من قبل البحوث الكبيرة التي يمكن أن ترميهم بالرصاصة ولا تنبالي لأن صاحبها سيدفع الدية في النهاية، وهي دية تختلف من المسلم عن غير المسلم، وغيرها من القضايا التي نجح في استحضارها بشكل يضعها موضع التساؤل لدى المتلقي، دون أن تغفل

بروز ووضوح المؤلف أمامنا لأنه ناقد ذاتي اجتماعي من خلال نصه الروائي كما ذهب إبراهيم خليل في كتابه «في نظرية الأدب وعلم النص»، الدار العربية للعلوم - ناشرون، منشورات الاختلاف الجزائر، 2010.

بيد أنه في وسط هذا الزخم الروائي الشيق والمتعمق بحق لنا أن نختلف مع المبدع سعد القرش في بضع نقاط منها مثلاً واقعة تقبل أسرة مصطفی لمعاشرته في منزله لامرأة أميركية، وعدم رفضه ذلك، رغم أن الأسرة هي نتاج بيئة ريفية، بل يحدث التقيض من والدته، عندما يقرر أن يتزوجها لا تعترض، بينما هي توافق على قبول استمرار العلاقة بينهما من دون أن يكون هناك رباط زواج.

مثل هذا الأمر يبدو غريباً على المجتمع المصري، ولا نستطيع تصور أنه قابل للتحقق في المجتمع المصري بهذه البساطة، رغم أنه أعطى زخماً للمعنى السردي، حيث أوجد سيلاً من المقارنات والتدقيقات في قراءة التاريخ المصري

عنه، ليجد القارئ نفسه أمام منعطفات تاويلية واضحة لما يرغب أن يقوله المؤلف (راجع: أميرتو إيكو: القارئ في الحكاية، ترجمة أنطوان أبوزيد، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، بيروت، 1996)، فمصطفى المايسترو هو بشكل أو بآخر اختزال للشخصية المصرية، التي هي القائد والمحرك للمنطقة العربية، أو هي الشخصية المحدثة بلسان المؤلف الضمني: فريدة إبراهيم بن موسى: زمن المحنة في سرد الكاتبة الجزائرية: دراسة نقدية، دار غيداء للنشر والتوزيع، 2013م، ص 31)، فما من سبب داخل فنانيا الرواية يدعو للتسمية عندما تزوج، وهو لا علاقة له بمجال الموسيقى بل يعمل في حقل المحاماة، ولكنه يمتاز بمغامراته الكثيرة التي أفضت إلى نجاح علاقته غير الشرعية مع النساء، مع مفارقة فضله في علاقته الشرعية عندما تزوج، ثم في النهاية حب أميركية تبدو غريبة الأطوار بالنسبة إليه، ورغم بداية علاقته معها بشكل غير شرعي، فإن الأمر ينتهي بهما زوجاً وزوجة، وما بين قراره الأخير بالسفر للإقامة مع زوجته الأميركية، تأتي استراحتة على قارب بدائي مصنوع بيد هندي مع رفقة تشعر بامتنان كرامتها الإنسانية، ليتحدثوا فيها جميعاً عن همومهم والأمهم، لكن الحال يتحول لحديث وحكاية عن مغامرات المايسترو مصطفی. جوهر الإمتاع الأساسي في هذه الرواية هما عنصر الوصف والإحداث، فالمفارقة - كما

أشرت - بين وضع شخصيات بعينها في محاولة الهروب من واقع القيود المفروض على البسطاء والعامية في تلك الدولة الخليجية - التي لم يسفها - لتصبح مثالا لأي دولة خليجية، تحرم على مواطنيها - حتى في الطيران الخاص بها - شرب النبيذ وفق قوانين الطيران الدولي، بينما تتيح ذلك للأجنبي الغريب.

وفي المقابل يتمتع من لديه المال أو السلطة بممارسة كل ما هو ممنوع دون أن يكون في ذلك أي عقوبة، لكن وهو يمارس ذلك دون سعادة حقيقية، فزوجة الشخص الذي يمارس مجونه

ولكنه وفي زخم احتياجها لنداء الجسد تؤكد له أنها ليست كذلك، وأن ما جعلها تفعل هذا هو الإهمال والإهانة لإنسانيتها وتقديرها لاستئثار مراعاة هذا الرجل لها، تمنحه قلالته التي تحمل مفارقة المعنى الدلالي بين الرفاهية والمال، لكنها جاءت هدية له وليدة نقص واحتياج نفسي، حيث تحمل كلمة «وتمت نعمة ربك».

يتوجه سعد القرش على نحو خاص لقارئة في حكايته، مقدماً وبشكل واضح - متجنباً الغموض من بين ثنائيا الاعتماد على التشويق - مكتفياً بعجائبية الواقع وغرائبيته الذي يتحدث

وكل وعي تمثيل لقطاع معين من الواقع، ويهدف القرش هنا إلى تنبيه الوعي الجمعي لدى القراء إلى المال الذي انتهت إليه الأمور في الدول العربية، فيغوص في عمق التجربة الإنسانية وتنوعاتها، ويختار القطاعات التي يرغب في تناولها على نحو دقيق، وكل قطاع يختاره لديه عقده الخاصة به ومشكلاته في مواجهة الواقع.

منذ البداية، نحن نشاهد أنيل وهو مدفوع برغبة الحصول على كرامته في وجه سبيل الإهانات من الكفيل، إنه لم يفعل شيئاً إلا مجارة الابن الصغير لسيدته العربي - ونلاحظ مقدار ما في كلمة «سيد» من إشارات ودلالات - فيصنع قارباً من بقايا مخلفات خشبية، وما إن يحضر السيد الكبير ويشاهد القارب في الحديقة حتى يتناوبه بذكره ماض كان فيه كل معيشة أهل الخليج مبنية على استخراج اللؤلؤ من المحار، ورغم القيمة الاقتصادية للؤلؤ إلا أن الواقع كان بانئساً وشاقاً، واليوم بعد تبدل الأحوال، لا يريد هذا السيد ما يذكره بهذا الواقع القديم، هو الآن يعيش واقعاً جديداً يستشعر معه أنه قياد على التحكم في مصائر الخلق، من هوندو وينغال وتبتيين وغيرهم. وبعد العشرة وطول الفترة التي قضاهما ماني والد أنيل في خدمة السيد، يُطرد أنيل من كفاة سيده القديم، ليقول له:

«من هناك تعرف الطريق، أخرج ولا تُرني وجهك، خذ قاربك إلى الجحيم وتسلول لك أي سيد يكفلك، وأبوك باق هنا، سنه أكبر من البحث عن سيد آخر، وهو مسؤول عنك، وإذا بلغني أنك ارتكبت خطأ، فستراني مرة أخرى، وأخيرة. الآن ودّع أبك، فلن نقابله بعد اليوم».

مع ثراء ووفرة الواقع الاقتصادي الذي يعيشه السيد الخليجي نجد أن الناحية النفسية مأزومة، فهناك غياب لوضوح الهدف، وعدم القدرة على تحقيق السعادة، خاصة في ظل الكم الكبير من التناقضات ما بين المسموح والممنوع، وما بين الرغبة والكتب، العديد من التناقضات التي تكتنف هذا المجتمع، والتي يمثل أعلاها ما حكاة مصطفی عن تجربته عندما ادعى أنه كيف فادته المغامرة إلى رجل تعدى الستين لكنه لوطي، يرتدي ثياب النساء، ويصبح مصطفی في موقف المضطر للسكوت عما يراه - وهي مفارقات تعبيرية - والمشارك في الاستمتاع بالبحر المغامرة، حتى تقوده المغامرة إلى معاشرة زوجة هذا السيد.

وكنه وفي زخم احتياجها لنداء الجسد تؤكد له أنها ليست كذلك، وأن ما جعلها تفعل هذا هو الإهمال والإهانة لإنسانيتها وتقديرها لاستئثار مراعاة هذا الرجل لها، تمنحه قلالته التي تحمل مفارقة المعنى الدلالي بين الرفاهية والمال، لكنها جاءت هدية له وليدة نقص واحتياج نفسي، حيث تحمل كلمة «وتمت نعمة ربك».

يتوجه سعد القرش على نحو خاص لقارئة في حكايته، مقدماً وبشكل واضح - متجنباً الغموض من بين ثنائيا الاعتماد على التشويق - مكتفياً بعجائبية الواقع وغرائبيته الذي يتحدث

يصنع سعد القرش في روايته «المايسترو» معادلاً موضوعياً لواقع عربي سعي، يسير إلى المجهول، عبر استحضار مجموعة من الشخصيات، وتداخلها معاً في سياقات الحكيم، ليصبح، رغم اختلاف الخلفية الحكائية لكل منهم، مصيرهم جميعاً مرتبطاً بالمساق نفسه، فإما أنهم ينجون معاً، أو يهلكون معاً، ورغم الصراعات النفسية الخاصة بكل منهم، فإن تداخل الحياة مع الذكريات مع الأوجاع الصغرى والكبرى ومع حديث النفس، ذلك ما يصنع الأديبة الخاصة برواية «المايسترو»، وكأننا نتأمل مقولة عز الدين إسماعيل في كتابه «التفسير النفسي للادب»، «إن النفس تصنع الأدب، وكذلك يصنع الأدب النفس. النفس تجمع أطراف الحياة لكي تصنع منها الأدب، والأدب يرتاد حقائق الحياة لكي يضيء جوانب النفس (...). إنها دائرة لا يفتقر طرفاها إلا لكي يلتقيا».

الهندي والتبتي فهو غالباً ما يأتي في باب المقارنة من حيث العقائد، ومن حيث الحكمة التي احتوتها هذه البلدان.

ومع الوقت، وظهور وتراكم الثروة النفعلية تحول أهالي هذه البلدان المعروفة تاريخياً بحكمتها، إلى العمل المضمي والشاق في دول الخليج «القادر بماله على تحقيق كل شيء» وفق ما يقوله نواف، لكن المشكلة أنه لا يتحقق من كل شيء إلا مجال المتعة والشهوة للكبار وعلية القوم هناك، لتأتي المفارقة عندما يوجه (المايسترو) سؤالاً إلى نواف:

«هل صدقت أن الخليج نزع حمالة صدرها؟ يجب نواف: الخليج قادر على كل شيء.»

يقولها ويتبسم، فيسأله المايسترو: «كل شيء؟»

«نعم، كل شيء، الحمالة والصدر وصاحبته وصاحبها إذا لزم الأمر.»

«تتكلم عن كيان خرافي لا يعجزه، بالمال، شيء؟»

نلاحظ أن «المايسترو» يسأل عن الخليج قاصدا المياد بعدما تم إلقاء فتاة دون حمالة صدر في مياحه من أحد البحوث كبيرة الحجم، بينما يرد نواف قاصداً الدول والمجتمعات والشعوب وحياتها، تتحول الواقعة هنا إلى واقعة «وعي» يقول لوسيان جولدسمان «أي واقعة اجتماعية هي أساسا واقعة وعي

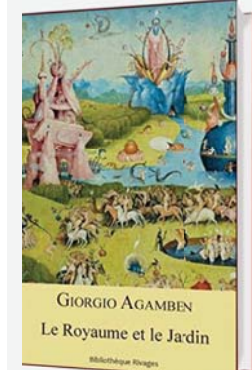


محاولة الهروب من واقع القيود المفروض

الفردوس الأرضي والملوكوت

منذ أكثر من ألفي عام، شكل الفردوس الأرضي، أي الجنات التي غرسها الله في عدن، براديف العالم الغربي لكل سعادة ممكنة على سطح الأرض، رغم أن هذا المكان كان أيضاً في البداية هو الذي طردت إليه الطبيعة الإنسانية إلى الأبد، بعد اقتراحها المحظور. فمن ناحية، كل أحلام البشر القورية يمكن أن ينظر إليها كمحاولة دؤوب للعودة إلى عدن، في تحدٍ للحراس الذي يمنعون الدخول إليها، ومن ناحية أخرى تظل الحديقة نوعاً من الصدمة الأولية التي تحكم على كل بحث عن السعادة الأرضية بالفشل.

من خلال نقد صارم للمذهب الأوغستيني حول خطيئة البدء وإعادة قراءة لفردوس دانتي، لا ينظر الفيلسوف الإيطالي جورجيو أغامبين في كتاب «المملكة والحديقة» كقاض مفقود أو مستقبل قادم، بل كصورة لا تزال حاضرة عن الطبيعة البشرية والموطن المناسب للبشر على الأرض. ويرى أن ثمة براديفاً سياسياً في المملكة الألفية هو الذي قدم نموذجاً لشأن الطوباويات. إن كانت المملكة وحدها هي التي تفضي إلى الحديقة، فإن الحديقة هي وحدها التي تجعل المملكة موضعاً للتفكير.



ليفيناس المجدد

بعد «فلسفة السلك السياسي» و«إثيقا الاعتبار»، صدر كتاب جديد لكورين بيلوشون، أستاذة الفلسفة بجامعة غوستاف إيفل عنوانه «لكي تفهم ليفيناس».

ما من شك أن إمانويل ليفيناس جدد الفلسفة في العمق، سواء من جهة تحديده الذاتية من خلال المسؤولية، والظلم السياسي لذلك المفهوم، أو من جهة تركيزه على الجسدية بوصفها هشة أو متصلة بفينومينولوجيا العيش على الأغذية. وقد تولد الكتاب عقب ملتقى ساهمت فيه بيلوشون، والتقت بطالبة الفلسفة وباطباء ومرضيين، قدمت لهم مفاتيح لفهم أعمال ليفيناس، وتجربته الفكرية، وبينت كيف استحوطت منه أعمالها، التي تواصل فرضياته وتناقشها أحياناً، مؤكدة على راهنية هذا الفيلسوف، حتى عندما نتحدث عن مواضيع لم يخض فيها كثيراً كالطب، والإيكولوجيا، والعلاقة بالحيوان.



زوكربيرغ والرأسمالية المراقبة

فيسبوك أضخم شبكة تواصل اجتماعي في العالم، يتجاوز فيها نحو مليارين ونصف من المنخرطين، وهي مجموعة لم يشهد لها تاريخ البشرية مثيلاً، حيث تعدد فيها اللغات والثقافات وتخلط مجالاتها المطروقة اختلاطاً عجيماً. ولكن ما لا يعرفه المتهافنون عليه أن هذه الشبكة التي يديرها أكثر من ثلاثين ألف موظف موزعين عبر العالم، منجم من المعطيات لا يقدر عمقه ومحتواه، ما انفك يكس معاملات مالية قاربت رسملتها في السوق نصف بليار دولار العام الماضي.

عن هذا النموذج الاقتصادي الذي يقوم ببساطة على بيع معطيات المستخدمين لشركات الإشهار والمؤسسات التجارية، يتحدث جوليان لوبوفي كتاب «في رأس مارك زوكربيرغ»، ويحلل المخاطر التي قد تنجر عن تبرع المستخدمين بمعطياتهم الشخصية، مخاطر ليس أقلها استعمالها لتوجيه رغبات الناخبين. ويمضي في رصد شخصية زوكربيرغ، أصغر ملياردير في العالم، ومحاولة تحليل ما أسماه «الرأسمالية المراقبة»، معرباً عن خشية بان يكون ذلك الشاب الأمريكي قد ابتعد وحشا يعسر التحكم فيه.



رف الكتب

